

السيدة زينب (ع)

لمحات من سيرتها ومواقفها

أليس مزاحم

ولادتها (ع)

ولدت السيدة زينب (ع) بنت أمير المؤمنين (ع) في الخامس من شهر جمادى الأولى في السنة الخامسة للهجرة، وقيل في غرة شعبان في السنة السادسة، وكانت ولادتها في حياة جدّها رسول الله (ص) الذي كان يتردد دائماً إلى منزل ابنته فاطمة الزهراء (ع) ولا سيما بعد ولادة الإمامين الحسن والحسين (ع) وريحانته زينب (ع).

كنيتها وألقابها وصفاتها

كنيت السيدة زينب (ع) بأُم الحسن، ولقبت بالصديقة الصغرى، والعقيلة، وعقيلة بني هاشم، وعقيلة الطالبين، وعابدة آل علي، ووصفت بالموثقة والعارفة والعالمة غير المعلمة، والفاضلة والكاملة، وغيرها من الصفات الحميدة والنوع الحسن حتى قيل إنها من أجل أهل البيت (ع) حسباً وأعلام نسباً فكانت "من فضليات النساء، وجليات العقائل التي فاقت الفوارس في الشجاعة، واتخذت طول حياتها تقوى الله بضاعة، وكان لسانها الرطب بذكر الله على الظالمين غضباً، ولأهل الحق عيناً معيناً، كريمة الدارين، شقيقة الحسنين، بنت البتول الزهراء التي فضلها الله على النساء، وجعلها عند أهل العزم أم العزائم، وعند أهل الجود والكرم أم هاشم".
وقد جمعت بين جمال الطلعة وجمال الطوية، حتى أنها اشتهرت في بيت النبوة ولقبت بصاحبة الشورى.

علمها وتقواها أو (عبادتها)

تربّت السيدة زينب (ع) في مدينة العلم النبوي متكئة على بابها العلوي، علماً وطهرأ وإيماناً غدتها أمها الزهراء (ع) بالفضائل الرفيعة والخصائل الحميدة وطوت عمراً من

الدهر مع الإمامين السبطين يزفانها العلم زفاً، وما قول الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) لها: "أنت بحمد الله عالمة غير معلمة، وفهيمة غير مفهّمة"، إلا دلالة على مدى علمها، وكأنه أفيض عليها إلهاماً.

وإذا وقعنا على الحديث الشريف: "من أخلص لله تعالى أربعين صباحاً انفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"، علمنا أنها، عليها السلام، العالمة والفهيمة لأنها أخلصت لله مدى عمرها.

وكان للسيدة زينب (ع) مجلس في بيتها، أيام إقامة أبيها الإمام علي (ع) في الكوفة، وفيه تفسّر القرآن للنساء، وقد روت أخباراً وأحاديث كثيرة عن أمها الزهراء (ع) وعن أبيها وأخويها الحسن والحسين عليهم السلام، وروت عن أم سلمة وأم هاني وغيرهما من النساء اللواتي سمعن عن رسول الله (ص)، وممن روى عنها ابن عباس والإمام علي بن الحسين (ع) وعبد الله بن جعفر، وفاطمة الصغرى بنت الإمام الحسين (ع)، وغيرهم، وعن الصدوق محمد ابن بابويه قال: "كانت زينب (ع) لها نيابة خاصة عن الحسين (ع)، وكان الناس يرجعون إليها في الحلال والحرام حتى برئ زين العابدين من مرضه".
وفيها قال الشاعر:

روت عن أمها الزهرا علومها لها وصلت إلى حدّ الكمال

مقاماً لم تكن تحتاج فيه إلى تعليم علم أو سؤال

وأما عبادتها فهي فيها تالية أمها الزهراء (ع)، فقد كانت تقضي عامة لياليها بالتهجد وتلاوة القرآن وما تركت نافلة الليل، وعن القائني البرجندي أنه قال: "إن الحسين (ع) لما ودّع أخته زينب وداعه الأخير، قال لها: يا أختاه لا تتسني في نافلة الليل" وقالت فاطمة بنت الحسين (ع): "وأما عمتي زينب، فإنها لم تزل قائمة تلك الليلة، أي العاشرة من المحرم، في محرابها تستغيث إلى ربها فما هدأت لها عين ولا سكنت لها رنة". ويؤكد ذلك قول الإمام زين العابدين (ع): "إن عمتي زينب مع كل تلك المصائب والمحن النازلة بها في طريقنا إلى الشام ما تركت صلاة الليل".

ويجمع أهل الفضل أنها عليها السلام ما تركت تهجدها لله تعالى طول دهرها، وأنها كانت من القانتات اللواتي وقفن حركاتهن وسكناتهن وأنفاسهن لله عز وجل، وبذلك حصلت على المنزلة الرفيعة والدرجة العالية التي ماثلت درجات الأوصياء (ع)، ويكفي أن نعلم أن الحسين (ع) كان إذا زارته زينب (ع) يقوم إجلالاً لها وكان يجلسها في مكانه.

زواجها من عبد الله بن جعفر

عاشت السيدة زينب (ع) في كنف أمير المؤمنين (ع) يحوطها برعايته واهتمامه، وقد خطبها الأشراف من العرب ورؤساء القبائل، لكن الإمام (ع) ردّهم وزوّجها من ابن أخيه عبد الله بن جعفر بعد موافقتها، واشترط عليه أن لا يمنعها السفر مع أخيها الحسين (ع). وكان عبد الله بن جعفر أول مولود في الإسلام بأرض الحبشة، وصحب الرسول (ص) فيما بعد، وحفظ حديثه، ولازم أمير المؤمنين (ع)، وقيل إنه كان أميراً من أمراء جيشه في صفين، ولازم الحسن والحسين (ع) وأخذ منهما العلم الكثير.

وكان عبد الله كريماً، جواداً، عفيفاً، سخيّاً، يسمى بحر الجود، وكان من أسير بني هاشم وأغناهم، وله في المدينة قرى وضياع، فكان بيته محط آمال المحتاجين، وكان لا يرد سائلاً قصده، وكان يبدأ الفقير بالعتاء قبل أن يسأله، فسنل عن ذلك فقال: لا أحب أن يريق ماء وجهه بالسؤال؛ حتى قال فقراء المدينة بعد موته: ما كنا نعرف السؤال حتى مات عبد الله بن جعفر.

وقد تساءل البعض عن عدم خروج عبد الله بن جعفر مع الإمام الحسين (ع) والمعتقد — كما يقول العلامة محمد جواد مغنية (ره): "إن عبد الله بن جعفر كان مطيعاً للإمامين الحسن والحسين (ع) بعد عمه، وإنه لم يخالف لهما أمراً، لا في السر ولا في العلانية. والحسين (ع) لم يلزمه بالخروج ولم يوجب عليه ذلك، بل ترك له الخيار، وقد رأى أن بقاءه في المدينة أصلح لاعتبارات نجلها نحن".

أولادها (ع)

ولد للسيدة زينب (ع) علي المعروف بالزینبي وعون ومحمد وعباس وأم كلثوم، وقد قتل عون ومحمد مع خالهما الحسين (ع). وأم كلثوم هي التي خطبها معاوية لابنه يزيد لكن خالها الإمام الحسين (ع) زوّجها من ابن عمها القاسم بن محمد بن جعفر بن أبي طالب.

في كربلاء

الاستعداد للرحيل:

انتقلت السيدة زينب (ع) إلى بيت الإمام الحسين (ع) قبل خروجه من المدينة، ومعلوم أنها لم تكن تجلس إلا بجانبه منذ صغرها، وقد أخبرت الزهراء (ع) رسول الله (ص) بذلك فيكى (ص) وأخبرها بمصائب زينب وما يجري عليها، واشتراكها مع الإمام الحسين (ع) في النائبات.

وبعدما حاول ابن عباس إقناع الإمام بعدم الخروج إلى الكوفة ولم يوفق في ذلك، حاول إقناعه بترك النساء والعيال في المدينة، لكن الإمام رفض أيضاً؛ وسمع ابن عباس من ورائه السيدة زينب (ع) تقول: "يا ابن عباس تشير على شيخنا وسيدنا أن يخلفنا ههنا، ويمضي

وحده، لا والله، بل نحيا معه ونموت معه، وهل أبقى الزمان لنا غيره؟" فبكى ابن عباس بكاءً شديداً.

أمام هول المصائب:

كانت السيدة زينب (ع) تراقب أحوال أخيها الحسين (ع) ساعة بعد ساعة وتخطبه وتسأله عن كل حادث. ولطالما أغرورقت عيناها بالدموع، وسكنت على نفسها مخافة أن يحس بذلك أحد من العيال عندما كان ينعى الإمام (ع) نفسه أثناء الطريق إلى كربلاء. وعندما سمعت الإمام (ع) يقول:

يا دهر أف لك من خليل كم لك بالإشراق والأصيل
من طـطـالب وصـاحب قـتـيل

والدهر لا يقتنع بالبديل وكل حي سالك سبيلي

ما أقرب الوعد من الرحيل وإنما الأمر إلى الجليل

قالت عليها السلام: واتكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة اليوم ماتت أمي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضين وثمان الباقيين فعزاها الحسين (ع) وصبرها، ومما قال: "يا أختاه تعزّي بعزاء الله واعلمي أن أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون، وكل شيء هالك إلا وجهه ولي ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة".

وطالما أوصى الإمام (ع) النساء وفيهن زينب (ع) بالصبر على المصائب قائلاً لهن: "إذا أنا قتلت فلا تشققن عليّ حبيباً، ولا تخمشن عليّ وجهاً، ولا تقلن هجراً".

فكانت السيدة زينب (ع) موضع ثقة أخيها، فتحملت ما تحملت من مصائب وأحزان ونوائب تنوء بحملها الجبال فلم تفقد تماسكها وتوازنها والشهداء يتساقطون أمامها الواحد تلو الآخر ولم تكن تكفي مصيبتها بولديها وبعلي الأكبر والقاسم والعباس وسائر من استشهد من أهل بيته وأصحابه (ع)، حتى تعاضمت المصيبة باستشهاد الإمام (ع) ومع ذلك وقفت على جسد أخيها قائلة: "اللهم تقبل هذا القربان".

نعم.. بكت زينب (ع) أخاها الحسين (ع) كأبي إنسان يفقد عزيزاً أو حبيباً، ولقد حفظ التاريخ ما قالته في الحسين (ع) نادبة إياه بصوت حزين:

يا محمداه صلي عليك عليك السما هذا حسينك مرمل بالدما مقطع الأعضاء وبناتك
سبايا إلى الله المشتكى وإلى محمد المصطفى وإلى علي المرتضى وإلى فاطمة الزهراء
وإلى حمزة سيد الشهداء إلى آخر ما جاء في هذا النذب الحزين
ولكنها ما إن سمعت النساء يصحن ويبكين ويلطمن الخدود وهن ينظرن إلى جسد الإمام (ع) واشتدت الحال على الإمام زين العابدين الذي أنهكه المرض ، حتى قالت له: ما

لي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخوتي؟ فوالله إن هذا العهد من الله إلى جدك وأبيك.. إن قبر أبيك سيكون علماً لا يدرس أثره، ولا يمحي رسمه على كرور الليالي والأيام، وليجتهد أئمة الكفر وأشياح الضلال في محوه وتطميسته فلا يزداد أثره إلا علواً.

العين الساهرة

في الحادي عشر من المحرم، سارت القافلة باتجاه الكوفة فالشام، فبقيت تتعهد الإمام زين العابدين، وتسهر على الأطفال وترعى النساء وتتفقد كل من في القافلة خوفاً عليهم من الضياع ليلاً، وكانت توزع حصتها من الطعام على الأطفال وفي هذا قال الإمام السجاد (ع): "إن عمتي زينب كانت تؤدي صلواتها من قيام، الفرائض والنوافل، عند سير القوم بنا من الكوفة إلى الشام، وفي بعض المنازل كانت تصلي من جلوس، فسألته عن سبب ذلك فقالت: "أصلي من جلوس لشدة الجوع والضعف منذ ثلاث ليال"، إذ كانت تقسم ما يصيبها من الطعام على الأطفال، لأن القوم كانوا يدفعون لكل واحد منهم رغيفاً من الخبز في اليوم".

ولما دخلوا الكوفة، جعل أهلها يناولون الأطفال الخبز والجبن والتمر والجوز، فكانت عليها السلام تأخذ ذلك وترميه وتقول: يا أهل الكوفة، إن الصدقة علينا حرام.

ثم إنها أثبت أهل الكوفة على مواقفهم المتخاذلة اتجاه الإمام الحسين (ع) وأصحابه.. وقال بشر بن خزيم الأسدي: ونظرت إلى زينب بنت علي عليهما السلام يومئذ، فلم أر خفرة أنطق منها كأنها تفرغ عن لسان أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا، فارتدت الأنفاس وسكنت الأجراس ثم قالت: الحمد لله والصلاة على محمد وآله الطاهرين.. يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة ولا قطعت الرنة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم إلى آخر خطبتها بأهل الكوفة وهي تفرعهم تقرعاً.

الحرب الإعلامية.. امتداد للثورة

لم يفت من عضد السيدة زينب (ع) كل تلك المحن والمصائب التي ألمت بها، فقد شهدت وفاة جدّها ومأساة أمها، وشهدت قتل أبيها في محرابه، وموت أخيها الحسن (ع) مسموماً، ثم استشهاد أخيها الحسين (ع) مع أصحابه وأهل بيته (ع) حتى لقيت بأم المصائب.. ومع ذلك تابعت الجهاد في سبيل الله بالموقف والكلمة، فكانت أن فضحت الحكم الأموي وأظهرت شرعية ثورة الإمام الحسين (ع) ومظلوميته، وأكدت على مكانة أهل البيت (ع)، الذين طهرهم الله تطهيراً. فقد أثبت المقصرين والناكثين عهودهم في الكوفة، وعندما قال لها ابن زياد في مجلسه: الحمد لله الذي فضحك وقتلكم وأكذب أجدوتكم، أجابت: الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد (ص) وطهرنا من الرجس تطهيراً، إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا والحمد لله. فقال ابن زياد: كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟ قالت عليها السلام: ما رأيت إلا جميلاً؛ هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فيرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع

الله بينك وبينهم فنتحاجون إليه وتختصمون عنده. فكانت عليها السلام ترد عليه كلما توجه إليها بالكلام حتى غضب غضباً شديداً وعندما حاول ابن زياد قتل الإمام زين العابدين (ع) لجرأته على مواجهة الأمير، تعلقت السيدة زينب (ع) بالإمام (ع) وقالت: يا ابن زياد حسبك من دمائنا، واعتقته وقالت: لا والله لا أفارقه فإن قتلته فاقتلني معه، فتركها ابن زياد بعدما تعجب من تعلقها بابن أخيها حتى أيقن أنها تريد أن تقتل معه.

في مجلس يزيد بالشام

ومما قالته السيدة زينب (ع) في خطبة طويلة في مجلس يزيد:
أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الإمام أن بنا هواناً على الله وبك عليه كرامة، وإن ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسرورا أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن تحذو بهن الأعداء من بلد إلى بلد ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد والذنيء والشريف إلى أن قالت له: فكذ كيدك واسع سعيك وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميم وحيناً ولا تترك أمرنا ولا ترحض (تغسل) عنك عارها، وهل رأيك إلا فند وأيلمك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين
أما في المدينة فقد أقام أهل البيت (ع) العزاء عن روح سيد الشهداء وأهل بيته وأصحابه، فكانت الدمعة والموقف والكلمة أدوات لمقاومة الظالمين وفضحاً لسياساتهم، وكشفاً لما أصاب أهل البيت (ع) في كربلاء ومظلوميتهم، وتأكيذاً لأحقية خلافتهم.

وفاتها (ع)

اختلف المؤرخون في سنة وفاتها ومحل قبرها، فمنهم من رأى أنها توفيت في المدينة المنورة، ومنهم من قال إنها توفيت في الشام بعد ثلاث سنوات من استشهاد الإمام (ع)، ومنهم من قال: إنها توفيت في مصر.

وهذا مرقدها الشريف ومقامها المعظم في ضاحية الشام الجنوبية، يعجّ ليل نهار بلزوار القادمين إليه من أقطار الأرض، تعبداً لله ومحبة للرسول (ص) وأهل بيته الأطهار (ع)، وطلباً لشفاعة هذه السيدة ذات المنزلة الرفيعة عند الله.

وكم من كرامات محققة ظهرت لها في شفاء المرضى والمعوقين وأصحاب الحوائج... كما أن مقامها ومسجدها المنسوبين إليها في القاهرة أيضاً، هما قبلة أنظار أهل مصر وشمال أفريقيا، الذين يتلهفون لزيارتها وللتبرك بمحضرها الشريف في أرضهم، فمن تواضع لله وجاهد في سبيله حق الجهاد، رفعه الله تعالى وجعله سبباً لفوز محبيه الناهجين سبيله.